أثر المشروع الاستعماري على المؤسسات الروحية والتعليمية في الجزائر1830 -1962م

د / بلقاسم شتوان

جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة –

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وآله وأصحابه الطيبين الطاهرين وبعد :

إنـــه لشرف عظيم أن أحظى بتوفيق الله تعالى وعونه في المشاركة في ملتقاكم المشار إليه أعلاه بمحاضرة بعنوان " **أثر المشروع الاستعماري على المؤسسات الروحية والتعليمية في الجزائر** " **والتي تندرج تحت** (**المحور الخامس : تأثيرات المشـــروع الثقافي الاستعماري في الجزائر**) والذي نتمنى له النجاح والتوفيق مقدما .

أولا :مقدمة :

الأسباب المباشرة وغير المباشر للاحتلال

لقـــد ذكـــر المؤرخـــون أسبابا كثيرة لاحتلال الجزائر من طرف فرنسا منها المباشـــرة وغير المباشرة في كتبهم نذكر منها بعضا كضرب أمثلة على ذلك لا الحصر :

الأسباب غير المباشرة :

1 - إن فرنسا لم تنس اصطدام مسلمي الأندلس بفرنسا في المعركة الشهيرة باسم "**بلاط الشهداء** "والمعروفة عند الفرنسيين بموقعة "**توروباي**" التي وقعت بسهول فرنسا على ضفاف نهر اللوار عام 114 هـ - 732 م واحتل المسلمون جزءا كبيرا من أراضيها .فمنذ ذلك الوقت وفرنسا تكيد للإسلام وأهله .[1]

2 - حصار فرنسا للجزائر وذلك بسبب حملاتها المتكررة على الجزائر فقد أدى هذا الحصار إلى جزر التبادل التجاري بين دول أوربا والجزائر وقد سبب هذا الأمر ضعف الاقتصاد الجزائري بحيث تحولت الطرق التجارية شرقا إلى بلاد تونس ، ولم يبق من الموانئ الجزائرية من جراء الحصار سوى مرسى الكبير وأرزيو، ورشقون في الغرب الجزائري على اتصال بإسبانيا [1].

3 - ديون الجزائر على فرنسا والتي تقدر بملايين الفرنكات الفرنسية .

4 - الحملة الفرنسية على الجزائر

5 - ترضية الشرف الفرنسي

6 - تمدين الأفارقة وذلك بتنصيرهم فلأجل هذه المهمة رافق الحملة ستة عشر قسا جاءوا بحماس ديني لا نظير له من أجل التبشير بالسيد المسيح عليه السلام

---

1 - ينظر الشيخ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي تاريخ الجزائر العام طبعة ديوان المطبوعات الجامعية ج3 ص 370

. وقـــد صرح بهذا الملك شارل العاشر نفسه يوم 02 مارس 1830 م حيث قال: " إن فرنسا تقصد من وراء تمدين الأفارقة إلى تنصيرهم ..." [1]

الأسباب المباشرة

يقـــول الشـــيخ عـــبد الرحمن الجيلالي : " وسبب وقوع بلاد الجزائر في أيدي الفرنسيين أنه في اليوم الخامس من شهر رمضان سنة 1243 هـــ الموافق 12 مارس 1828 م وقعت بين حسين باي وبين قنصل فرنسا مناقشة أفضت إلى المشـــاتمة بينهما فحنق القنصل من الباشا ومد يده إلى سيفه ليضربه فهم الباشا بقـــتله لـــولا أن نائبه إبراهيم داي توسط بينهما ومنعه من ذلك وقال له : إن الشريعة لا تجوز قتل المستأمن .فعدل الباشا عن قتله واكتفى بضربه وطرده من المجلس. فلما عاد القنصل أرسل إلى ملكه يخبره بما حصل [2]

نص وثيقة الاستسلام

لقد حررت وثيقة الاستسلام باللغة العربية وصودق عليها بقصر الرئيس حميدو الموجـــود إلى الآن بضـــاحية الجزائـــر " الأبيار"والملاحظ أن جميع المفاوضات والاتفاقـــيات لا تعتبر نافذة المفعول ولا ناجزة إلا بعد مصادقة مجلس الكراسي وأعضـــاء الديـــوان حســـب مـــا ينص عليه دستور الجزائر ونظام حكومتها الدبلوماسي التركي ، أما هذه الوثيقة فقد وقع الاتفاق عليها بطريقة استبدادية ، فلقـــد حـــررت بين مجرد مفوض الداي وقائد الحملة الفرنسية دون استشارة أعضاء الحكومة الجزائرية .

---

[1] – المرجع نفسه ص383

[2] – أحمد الجزائري : كيف دخل الفرنسيون الجزائر ط بيروت 1962 ص 21 .د/ صلاح العقاد ": المغرب العربي ط القاهرة 1962 م ص89

بنود الوثيقة

1- إن كافة القلاع المختصة بالجزائر وأبواب المدينة تسلم للعساكر الفرنسيين في صباح اليوم السادس من شهر جويلية على الساعة العاشرة .

2 - يتعهد القائد العمومي الفرنسي بتركه للباشا أمواله المختصة به .وعلى أن لا يؤذن للجنود الفرنسيين بدخول المساجد الجزائرية .

3- أن يكون لحضرة الباشا الحرية بأن يتوجه مع عائلته وأمواله إلى المحل الذي يرغبه وفي مدة إقامته وبقائه في مدينة الجزائر يكون هو وعائلته تحت حماية القائد العمومي الفرنسي ، وأن يكون هو وعائلته تحت حرس مخصوص

4- القائد العمومي الفرنسي يمنح هذه الحماية والامتيازات المعطاة لحضرة الباشا لكافة قواد العساكر الجزائرية من انكشارية وغيرهم .

5- تعطى الحرية للديانة المحمدية وللمكاتب الأهلية ولديانتهم مع احترام تقاليدهم وتجارتهم وصنائعهم .وأن لا يعارضوا في ذلك ، وأن لنسائهم الاحترام التام ومزيدا من الاعتبار .ويقسم الجنرال على ذلك بشرفه .

6-إن مبادلة هذه المعاهدة تكون غدا على الساعة العاشرة صباحا وتدخل العساكر قلعة القصبة ، ويقيمون في القلاع والشطوط البحرية.[1]

حرر بالمعسكر أمام مدينة الجزائر في 05 جويلية 1830 م

الإمضـــــاء

كونت دوبورمون حسين باشا داي الجزائر

---

1 - ينظر تاريخ قسنطينة ط قسنطينة 1262 هـ ص172 -173. تاريخ الجزائر العام ج3 ص405

ثانـــيا: أثـــر الاستعمار الفرنسي على المؤسسات الروحية (المساجد والزوايا العلمية)

1 - المســـــاجد

ما إن تغلب الفرنسيون على الجزائريين عام 1830 م بقيادة الجنرال دوبورمون ووقعـــت وثيقة الاستسلام كما ذكرنا آنفا فلم تمض مدة قليلة على هذا التعهد الغـــادر حتى قام الجنرال روفيقو بتحويل أول مؤسسة روحية تعبدية للجزائريين وهي

مســـجد كتشـــاوة الـــذي يعتـــبر رمز ا من رموز الهوية الروحية الوطنية إلى كاتدرائـــية تحمل اسم " saint-philpe "وقد تم ذلك بتاريخ 18/ 12 / 1832م [1] وأقيمت فيها أول صلاة مسيحية ليلة عيد الميلاد بتاريخ 24 / 12 / 1832 م وقـــد كـــان هذا الجنرال يقول وهو يعبث بالمؤسسات الروحية للشـــعب الجزائـــري : " يلـــزمني أجمل مسجد في المدينة لأجعل منه معبد إله المسيحيين " [2] .وأول عملية هدم وقعت في سنة 1831 لجامع السيدة الذي بنا ه ساري مصطفى كما هدم جامع الشواش قرب مدخل الجنينة مع قصرها .

ويقـــول : "أحمد توفيق المدني رحمه الله تعالى حول الاستعمار الفرنسي مسجد العين البيضاء بمعسكر إلى مخزن للحبوب"[3]

---

[1] - ينظر جريدة البصائر الاثنين 20/13 صفر 1422 هـــ الموافق 07 /14 ماي 2001 م عدد 49

[2] - المرجع نفسه

3 - أحمد توفيق المدني كتاب الجزائر ط العربية 1351 هـــ ص246

كمـــا أنه هدم مسجد بومعزة وأنشأ كنيسة كاثوليكية على أنقاضه تحمل اسم القديس بيير " saint pierre" وقد عرفت هذه الكنيسة ترميمات كبيرة في حدود 1860 متكلفة بها البلدية في عهد رئيسها فريدريك بيريز

ومـــن المساجد التي حولت إلى كنائس مسجد بني مروان بعنابة ، وجامع الباي بقسنطينة . وأما التي حولتها فرنسا إلى ثكنات عسكرية كجامع القصبة ببجاية الـــذي كان عبد الرحمن بن يدرس فيه، ومما حولته إلى مخازن ومتاجر مسجد ســـيدي حسن بمعسكر الذي صار مخزنا للبضائع والذخائر مدة ثم سلمته لتاجر يهـــودي يخـــزن فيه ويتاجر بالحبوب وعلف الحيوانات .ولم يتوقف الاستعمار الفرنسي عند هذا الحد بل حول مسجد خنق النطاح بوهران إلى حضيرة لتربية الخـــنازير وذلك بتسليمه إلى تاجر يهودي يشتغل بهذه الحرفة ، وهذا الفعل من الاســـتعمار الفرنسي يعبر عن الإمعان في المهانة والإذلال والاحتقار للمسلمين والإسلام.[1]

والواقع أن الاستعمار الفرنسي لم يكتف ببناء الكنيسة المذكورة على أنقاض المسجد لكي تستفز وتتحدى المسلمين ، وإنما اختارت لها مكانا بجانب الجامع الكبير الذي يرجع تاريخ بنائه إلى القرن الثامن عشر ويعد من أروع المباني العتيقة.[2]

---

[1] - يحي بوعزيز : مقال بعنوان : " البعد الحضاري الديني والاجتماعي لثورة نوفمبر 1954 م ص5-6

[2] - جكار لحسن نشاط جمعية العلماء المسلمين مرجع سابق ص61

2 - **الزوايا العلمية:**

وقـــد نهـــج الاستعمار الفرنسي خطته الإجرامية ضد المؤسسات الروحية بهدم وغلق المساجد والتنكيل والسجن والنفي لأئمتها والقائمين عليها .ولم تستثن الزوايا العلمية المناهضة للاستعمار بل عوملت بالمعاملة نفسها وذلك بمحاصرتها والتضـــييق عليها ولم تستثن من ذلك حتى الزوايا الموجودة في رؤوس الجبال وفي أقاصي الصحاري فحيثما وجدت زاوية للقرآن رأيت مركزا للتبشير بجانبها أو الأمر بغلقها ونفي شيخها وأتباعه أو بتدميرها .فقد اتبع الاستعمار سياسة التجهيل والتفقير والتقتيل وذلك بإبعاد الجزائريين عن قرآنهم والتخلي عن دينهم ولغـــتهم وثقافتهم وحرمانهم من خيرات بلادهم حتى لا يقوم في وجهه من يدافـــع عـــن وطـــنه . فبسبب هذه السياسة التي طبقها جنرالات فرنسا على الجزائريين منذ دخولهم أرض الوطن ازداد الجزائريون تمسكا وتصميما بما بقي في أيديهـــم من الزوايا والمساجد مع إنشاء أخرى تشبع رغبتهم الروحية و الإيمانية وتقـــوي عناصر ثقافتهم وتعمق هويتهم ومقوماتهم .وتحفز فيهم روح الجهاد والمقاومة ضد من دمر مؤسساتهم واستغل ثرواتهم وحاول مسخهم .

وبهذا الإيمان والحب والإخلاص والإقبال أسس إلى جانب ما بقي من مؤسسات تعليمية مؤسسات أخرى تمثلت في المساجد والزوايا القرآنية غربا وشرقا وشمالا وجـــنوبا عـــبر وطننا الشاسع الأطراف وهذه نماذج من الزوايا المجاهدة وتاريخ تأسيسها

1 - زاوية الشيخ الحواس تأسست قبل ثورة 1871 م بكثير لكون مؤسسها مـــن تلاميذ الشيخ الحداد ومن المشاركين فيها حيث ظل منفيا إلى ما بعد نهاية الثورة ، وأما مواردها فكانت من صدقات المحسنين والمتصدقين والهدايا وكانت

مـــلجأ للكثير من الفقراء وطلبة العلم الشرعي وحفظة القرآن. تخرج عدد كبير منها توزعوا على كتاتيب الناحية كمعلمين للقرآن . ومن الشيوخ الذين عملوا بهـــا الشيخ البشير الإبراهيمي .ومن الشيوخ المترددين عليها الشيخ الإمام عبد الحمـــيد بن باديس حيث كان أستاذا لبعض أبناء الشيخ الحواس .توقفت عن مهمتها عند قيام الثورة الجزائرية .وهجرها السكان

2 - زاويـــة المقـــدم خليفة (بازر سكرة) بالقرب من مدينة العلمة : أنشاها الشيخ خليفة الذي كان مقدما لزاوية الشيخ ابن الحملاوي بالقرب من التلاغمة - ميلة وهو الذي أوعز إليه بإنشائها حيث كانت مواردها من تبرعات المحسنين ومســـاعدة الزاوية الأم (زاوية سيدي ابن الحملاوي) وقد أمها كثير من طلبة العلم الشرعي وحفاظ القرآن . وتخرج منها عدد من المشايخ .

3 - زاويـــة الشيخ سي الحسن الموساوي بالرصفة بالقرب من مدينة عين ولمان وصـــاحبها مـــن تلاميذ ومريدي الشيخ الحواس حيث أنشأ زاويته بإشارة من شيخه في نهاية القرن 18 أي حوالي 1880 م تردد عليها طلبة القرآن والعلوم الشرعية .ومواردها من المحسنين كبقية الزوايا الأخرى وقد انقطع التدريس بها غداة قيام الثور التحريرية الجزائرية ونزوح السكان من حولها .

4 - زاويـــة أولاد تبان : تاريخ إنشائها غير معروف والراجح أنها قديمة ، ومن شـــيوخها شـــهيد ثورة 1871 م وهو الشيخ ساعد التباني .تعلم بها عدد من الشـــيوخ، وتخرج منها عدد من حفظة القرآن نذكر منهم الشيخ سي أحمد بن الحـــاج صالح الإمام السابق لمسجد رأس الوادي وغيره.ومصادرها كانت من صـــدقات المحسنين . وحاليا انقطع عنها المدد وهجرها من حولها من السكان لصعوبة موقعها وتضاريسه الجبلية الوعرة

5 - زاوية الشيخ عكة بالقرب من عين أزال ، مؤسسها الشيخ بلقاسم بن عكة في بداية القرن التاسع عشر كانت ملجأ لطلبة القرآن الكريم الذين عمروها ردحا من الزمن قادمين إليها من زاوية مجاورة تسمى زاوية الشيخ الخثير . توقفت عن النشاط عند قيام الثورة التحريرية .

6 - زاوية الحامة : تأسست في بداية القرن التاسع عشر أو قبله وعرفت نشاطا علميا متميزا حيث تخرج منها مشايخ أمثال الحاج السائح - وابنه الحاج أحمد - وسي امحمد شياد - وسي عمر - وعلم بها مشايخ كبار كالشيخ الهاشمي اليعلاوي حوالي عشرين سنة .

7 - زاوية بلقريني : بمعاوية بني عزيز أسست كذلك في أوائل القرن التاسع عشر حيث قامت بتعليم القرآن الكريم وبعض العلوم الأخرى وتعرض مشايخها وطلبتها إلى ألوان من التنكيل والتعذيب في أحداث 08 ماي 1945 م ، وتوقف نشاطها عند قيام الثورة الجزائرية المباركة .

8 - زاوية سيدي محمد أوقري بقترات

فهذه الزاوية قديمة أشار إليها في الرحلة الورتلانية ، والهدف من تأسيسها بعث التعليم القرآني من جديد .حيث حققت

نتائج جد طيبة بعد مدة من تأسيسها .وقد كان من مشايخها الشيخ الربيع أقري وغيره ومازالت إلى يومنا تزود مراكز تكوين الأئمة بطلابها .

9 - زاوية سيدي يحي أو موسى بمنطقة أفريحة ببني ورتلان : تاريخ تأسيسها ومؤسسها مجهول، وهناك رواية تقول تأسست قبل خمسة قرون.تخرج منها مشايخ كثر قبل وأثناء فترة الاحتلال الاستدماري . وهي متوقفة اليوم خلا من النشاط التعليمي القرآني.

لقـــد مـــرت أكثر من أربعين سنة على استقلالنا و الزوايا العلمية التي كانت تدرس القرآن و تحافظ على المكسب العظيم، والتي خربها الجيش الفرنسي أثناء حرب التحرير و هي الآن تنتظر من يبنيها و يعيد إليها الحياة.

و من يزر هذه القلاع يرى الخرائب الموحشة و الأطلال القابعة التي توحي بالرهبة و الكآبة، و تنطق بهمجية الاستعمار

الفرنســـي ووحشيته، يلمس آثار الدولة الفرنسية التي تتشدق بحمل شعار العلم و الحضارة والحرية و الإخاء والمساواة و تنادي بحقوق الإنسان.

إن تلـــك الأطـــلال الباقية هي مركز للصمود و التحدي . فمن يفحص تلك الحجـــارة و يتأمـــلها يجـــد كـــل واحدة منها رصاصة موجهة لصدر العدو المحـــتل.ومـــن يـــزر تلك الخرائب و الإطلال يفهم حقيقة الاستعمار الفرنسي البغـــيض، و يكشف أحقاده الدفينة، و كيف كان يصب جام غضبه على تلك الزوايا المجاهدة التي صنعت الأبطال و كونت الجيل الرافض للاستعمار الفرنسي الذي حارب أفكاره الخبيثة التي تخدر العقول و تسمم النفوس و تقتل الآمال في الإنسان المسلم و تشل تفكيره و قدرته و تجعله قزما حقيرا فلا يستطيع أن يفعل شيئا.

إن هـــذا الواقع المزري الذي نعيشه اليوم، ينبغي أن ندرك أنه مما يتسرب إلينا من هذه المفاهيم و القيم و الأفكار التي ترمي إلى تغيير الصالح المألوف و تبديل الصحيح الشائع المعروف، ليس في الحقيقة جديدا في حياة الأمم، بل هو حصار مر سيئ تكون في تاريخ البشرية عبر قرون طويلة من تراكم الفلسفات الضالة و الانحرافات عن منهج الحق و الخير.

و لا مناص لنا إذا أردنا الصحوة من غفلتنا و النهوض من كبوتنا من العودة إلى منهجنا الإسلامي الفريد الذي اختاره الله دستورا عاما شاملا لهداية البشر أجمعين، و ينبغي لنا أن نستوعب خصائص هذا المنهج الأصيل الذي لا يمكن أن تتغير حقيقته أو يتبدل جوهره أو تختل فيه قيمه ومبادئه.

وخلاصة القول فإنه بالرغم من ذلك كله فإن الزوايا أدت دورا كاملا ومهما في الدفاع عن الوطن .فثورة الأمير عبد القادر ما كان لها أن تأخذ هذا الحجم من الذيوع والتأييد والانتشار لولا استنادها على الطريقة القادرية الدينية .وكذلك بالنسبة لثورة الشيخ بوعمامة الذي كان هو نفسه شيخ طريقة .وثورة المقراني ما كسبت التأييد والعون من الشعب إلا بعد انظمام الشيخ الحداد وأولاده — شيخ زاوية صدوق — وهم الذين قادوها بعد استشهاد المقراني ووهبوا[1] الوطن أغلى ما يملكون

أثر الاستعمار الفرنسي على دور التعليم و اللغة العربية

3 - دور التعليم

لقد سبق وأن ذكرنا ما إن تغلب الفرنسيون على الجزائريين عام 1830 م بقيادة الجنرال دوبورمون ووقعت وثيقة الاستسلام فلم تمض مدة قليلة على هذا التعاهد الغادر حتى قام الجنرال روفيقو بتحويل أول مؤسسة روحية تعبدية للجزائريين وهي مسجد كتشاوة العتيق . كما أن القائد دوبورمون قد أصدر مرسوما بتاريخ 08 /12/ 1830 م يقضي بمصادرة الأوقاف الإسلامية والاستلاء عليها لأنها الممول الرئيس للمؤسسات التعليمية وغيرها من

---

1 - عمار قليل ملحمة الجزائر ج1 ص137- 138

المؤسســـات الروحية التي أشرنا إليها ، ثم قام بعد هذا القرار جنرالا ته بإعطاء الأوامـــر لجـــنودهم بهدم وتخريب وغلق لدور العلم ومصادرة للكتب النفيسة وتدمير للمكتبات الموجودة بالمساجد والزوايا وذلك بنهبها أو إحراقها وهذا ممـــا لا ريب فيه هو إعلان حرب لا هوادة فيها على الشعب الجزائري وعلى هويـــته الإسلامية واللغوية والتاريخية وعلى انتمائه الحضاري العربي الإسلامي .وهذه بعض الأمثلة على فعلة الاستعمار الفرنسي تجاه دور التعليم التي وجدها قائمة عند دخوله للجزائر حيث قام بهدم مدرسة جامع السيدة التي بناها السيد مصـــطفى ساري عام 1830 م ثم هدم مدرسة خير الدين في عام 1831 م .وفي عام 1839 م هدم مدرسة مسيد الداخلية وخربتها[1] .ثم مدرسة الرحبة القديمة التي ضمت إلى إحدى الدور وكان هذا عام 1840 م واستمرت هذه السياســـة الاســـتدمارية عبر كامل الوطن المفدى. فبعد احتلال مدينة قسنطينة كتـــب الجنرال **بيدو** تقريرا عن التعليم فيها قدمه إلى وزير الحرب جاء فيه : " إن التعليم في قسنطينة كان منتشرا بصورة غير متوقعة فقد كان فيها مدارس من مختلف المستويات الإقليمية ، فمدارسها الثانوية والعالية تضم بين 600 -700 تلميذا يدرسون علوم التفسير وعلوم الحديث ، ومحاضرات في الحساب والفلك والبلاغة والفلسفة .كما يوجد بها 90 مدرسة ابتدائية يتردد عليها بين 1300 - 1400 طفـــلا ،وكان عدد المساجد بها 35 مسجدا .و سبع مدارس ثانوية

---

[1] - الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي 1830 – 1954 م ط دار الغرب الإسلامي ج 3 ص 27

والمدارس الابتدائية تابعة للمساجد والزوايا .وبعد احتلال المدينة تدهورت كل المؤسسات ففي عام 1847 م كاد التعليم يختفي تماما في هذه المدينة .

وتقول الدكتورة تورني : " كان يوجد في مدينة عنابة وحدها 39 مدرسة و37 جامعا قبل الاحتلال الفرنسي ، لم يبق منها سوى 03 مدارس ، و15 جامعا وقس على هذه النسبة بقية المراكز الثقافية الأخرى في كافة أنحاء البلاد".

ويؤكد هذا المعنى المؤرخ الفرنسي بولارد – poularde – بقوله : " كانت الجزائر تضم معاهد علمية عظيمة الشأن في الفلسفة والآداب ، والعلوم والطب وقواعد اللغة العربية والقانون الإسلامي (الفقه) وعلم الفلك وكان يقوم بتدريسها أساتذة من كبار الجزائريين .كما كانت هناك مدارس عديدة متخصصة لتعليم القضاء الشرعي ...ثم يقول : لقد أحدث وجود الفرنسيين اضطرابا بالغا بين هؤلاء المفكرين والأدباء واضطر العلماء والفقهاء إلى ترك وظائفهم كما

شتت التلاميذ الذين اضطروا إلى السعي وراء طلب العلم في السر بعد أن كانوا يتعلمون في حرية كاملة " [1] ويعترف الدوق دومال الوالي العام على الجزائر في تقرير له إلى حكومته حيث قال : " قد تركزنا في الجزائر واستولينا على المعاهد العلمية وحولناها إلى دكاكين وثكنات "[2]

---

[1] – ينظر يونس درمونة المغرب العربي في خطر ط دار الطباعة الحديثة 1965 م ص 36

[2] – مجلة الأصالة الجزائرية عدد6 (يناير فبراير) 1972 ص168

4 - اللغة العربية

أمـــا اللغـــة العربية فلم تكن أوفر حظا من سابقاتها فقد أصدر وزير الداخلية الفرنسي قرارا آنذاك عام 1838 م سمي باسمه "قرار شوطان "وقد نص على أن " اللغة العربية لغة أجنبية ولا يجوز تعليمها في المدارس سواء أكانت حكومية أم شـــعبية " . ويقـــول الفضيل الورتلاني في مقال له تحت عنوان **محنة اللغة العربـــية في الجزائر**: " احتل الفرنسيون الجزائر عام 1830 م فوجدوا أهلها يديـــنون بالإسلام ويتكلمون بالعربية ويقدسونها منذ اثنتي عشر قرنا ونيفا فعز عـــلى المســـتعمرين أن يكون لهذه الأمة مقدسات أو مقومات حياة لأنهم بيتوا قتـــلها وإفناءها أو مسخها على الأقل ، فرأوا أن يسددوا أول ضربة حازمة إلى اللغـــة العربـــية مظهر كرامة الأمة وعنوان بقائها .فاصدروا قانونا يجعل اللغة الفرنســـية في الجزائر هي اللغة الرسمية وحدها .وصيروها لغة المدرسة ابتداء من روضة الأطفال إلى الصفوف العالية في الجامعة .وجعلوها لغة المعاملة ابتداء من مخـــتار الحـــارة حتى تنتهي إلى الحاكم العام .وهذا أمر قد يسهل تصديقه ، إنما الـــذي يعز ـــ ولا شك على القارئ ـــ تصديقه هو أن الفرنسيين الديمقراطيين قد أصدروا قانونا آخر يعتبرون اللغة العربية بين أهلها لغة أجنبية .

وهذا ما حصل بالذات ، و لم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوزه إلى اصطناع كـــل الإهانـــات لها ، فكل مدرسة أهلية للعربية إذا سمح بفتحها ، إنما تخضع لقـــانون المدارس الأجنبية ، وإن كل جريدة تصدر بالعربية إذا سمح بصدورها تخضـــع لقـــانون الصحف الأجنبية ، وإذا كتبت أنت إلى صديق لك رسالة في الجزائـــر وجعلت العنوان بالعربية إنما ترمى في سلة المهملات " "وأن السماح بفتح المدارس لتدريس اللغة العربية والعلوم الإسلامية الأخرى في نظر الفرنسيين

إبان فترة الاستدمار يعد أخطر من فتح مصنع لإنتاج الأسلحة والذخيرة ، ولقد كانت تشهد المحاكم الفرنسية في الجزائر مناظر مخجلة يساق فيها معلم العربية في كموكب اللصوص والقتلة " .

إن الضـــعف الـــذي أصبحت عليه اللغة العربية الفصحى إبان فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر وذلك بسبب محاربة الإدارة الفرنسية لها والحصار المحكم الذي ضربته على التعليم العربي الوطني ، وإحلاله اللهجة العامية الجزائرية محل الثقافة العربية فامتزجت العامية بالعديد من المفردات الفرنسية حتى أصبح الجزائريون يخشـــون على لهجتهم العامية أيضا من الزوال والتحول إلى لغة فرنسية منطوقة بـــلهجة عامـــية ، وقد نبه إلى هذا الخطر أحد الكتاب الجزائريين في مقال له بعنوان: " **غربة اللغة العربية حتى أصبحنا نخشى على اللغة الدارجة** " بقوله : " لئن كان منكم من جيل بينه وبين الفصحى

فـــلا أقـــل من أن ينال حظه من اللغة العربية الدارجة ، فإن الرطانة التي تفشى أمرها عموم المطر وتشوهت بها الألسن أيما تشويه ة وتركتنا خائفين على لغتنا العامية ذلك الخيال الباقي من العربية" [1] .

إن فرنســـة الكثير من الجزائريين الذين أصبحوا يمثلون طبقة منغلقة على نفسها تجـــاه المجـــتمع الجزائري متنكرة لوطنها ولغتها وتاريخها وقوميتها متفتحة على الـــثقافة والحضارة الأوربية تنشد الاندماج في المجتمع الفرنسي ، وهذا الهدف كـــان من أولى التوصيات التي أوصى بها الحاكم الفرنسي جيشه الزاحف على الجزائر عام 1830 م بقوله : " علموا لغتنا وانشروها حتى نحكم الجزائر ، فإذا

---

[1] - أبو العباس أحمد البصائر عدد 27 فيفري 1936 م

حكمـــت لغتنا الجزائر فقد حكمناها حقيقة ". كما أن انتشار ظاهرة التحدث باللغـــة الفرنسية بين الجزائريين في المدن الكبرى بسبب فرضها كلغة رسمية في جمـــيع المجـــالات الحياتية وبسبب احتكاك الجزائريين بالفرنسيين كموظفين أو عمـــال في الإدارات والمصـــانع وقطاع الخدمات ، والتي كان يتحتم فيها على الفرد الجزائري تعلم اللغة الفرنسية كتابة وقراءة أو محادثة على الأقل حتى يحصل على لقمة العيش ممن يتصل بهم من أرباب العمل والمسيرين من الفرنسيين .وقد استطاع الاستعمار الفرنسي في خبث ودهاء أن يكون فئة من متوسطي الثقافة والتعليم باللغتين العربية والفرنسية وتوظيفهما كإطارات في مختلف المؤسسات الإداريـــة والاقتصادية والإعلامية وذلك كجزء من استراتيجية محكمة شرعت الإدارة الاستعمارية في وضعها قبل الاستقلال لتدعيم الاتجاه المتفرنس الذي من خلالـــه ســـيحفظون على اللغة والثقافة الفرنسية في البلاد بعد حصولها على الاســـتقلال ، مع خلق نواة إدارة استعمارية للتبعية اللغوية والثقافية التي كانت تهـــدف وتخطط إلى إبقاء الجزائر تابعة إلى فرنسا ثقافيا وقد تحقق لها ذلك بعد الاســـتقلال حيـــث تخرجت نسبة عالية جدا من المثقفين باللغة الفرنسية من مؤسسات التعليم الجزائرية والتي لم تستطع فرنسا نفسها تحقيق ذلك منذ بقائها في الجزائر مدة مائة وثلاثين سنة.

إن شـــعور الجزائـــريين بالخطر الداهم الذي كاد يقضي على لغتهم وهويتهم وديـــنهم وثقافـــتهم العربية الإسلامية من بداية الحملة الصليبية الفرنسية على بلادهم عام 1830 م ، حيث يقول العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس عليه رحمة الله: " والشعور بهذا الواجب يعزى الفضل فيه إلى ما قام به نبغاء الجزائر وعلماؤها من الدعوة والإرشاد فظلوا ينافحون عن اللغة العربية والدين مظهرين

ما لهما من الرعاية والجلال ... وإلى كما قامت به الصحافة الجزائرية الفتية من ضروب التعضيد والتأييد ، والإذاعة .فتوصلت بعد جهاد طويل إلى غرس ملكة الـــذوق العربي في النفوس ليتذوق العموم من ثمرة حلاوة اللغة العربة وطلاوة أساليبها الرشيقة".ويقول عمر بن قدور : " هذه لغتنا العربية الشريفة التي أنزل الله بها الكتاب ، لغة القرآن والدين الإسلامي ، قد أصبحت منذ عهد مديد بعد إشـــراق أنوارها على الخليقة كسفينة في لجة البحر تمددها العواصف وتتجاذبها عوامـــل الحدثان [1] تكاد تذهب بها ريح الأهواء وكوامن الإهمال .....وإن كـــان للغة العربية ومحاسنها في عالم الترقيات الفكرية الأوربية أنصارا ينشرون مفاخرها ، ويتحدثون بذكرها ويمجدون آثارها على صفحات النشر والإطراء .فـــلها من غيرهم خصوم وأعداء ينكرون فضائلها ، ويغبنونها حقها فيقولون بصـــعوبة مناطقها وتعقد ألفاضها واستحالة الإلمام بجميعها .....وما ذلك إلا لأحـــد أمـــرين إمـــا جهلا أو تجاهلا بحقيقتها وتثبيطا للعزائم ، وتكاسلا عن مزاولتها ، أو لغاية في النفس ودسيسة تدس ....." [2]. ويقول أحمد توفيق المدني علـــيه رحمـــة الله تعـــالى في مقال له بعنوان **بين الموت والحياة** : " فالمسألة الموضـــوع أمامنا الآن هي مسألة المحافظة والعربية ، وهذه المحافظة هي البرنامج الوحيد الذي يجب أن يكون برنامج الجزائر بأسرها على الإسلام في حاضرها ومستقبلها .....وكأن الجزائر اليوم غير شاعرة بأن الإسلام في الجزائر سائر إلى طـــريق الموت ، وكأنها ليست شاعرة بأن العربية في الجزائر سائرة في طريق

---

[1] – الحدثان : الليل والنهار

[2] – جريدة المصباح عدد 18 بتاريخ 30 / 09 / 1904 م

الاضـــمحلال ، وكأنها ليست شاعرة بأنها إن فقدت إسلامها وعربيتها فقدت كـــل شيء ولم تنل أي شيء " والذي نخلص إليه أن الاحتلال سخر كل ما وصـــلت إلـــيه يده من وسائل وأساليب لتدمير المؤسسات الروحية والتعليمية وذلـــك قصـــدا مـــنه للقضاء على الإسلام واللغة العربية والانتماء الحضاري الإسلامي العربي وذلك بقهر إرادة الشعب الجزائري وإخماد لهيب مقاومته ، إلا أن الشـــعب الجزائـــري لم ولـــن يستسلم و يرضخ لهذه الهمجية الشرسة فقام يـــتحدى عدوه بإيمان وثبات وراح يفجر بها الثورات الواحدة تلو الأخرى إلى أن أشـــرقت شمـــس النهضة الوطنية الحديثة فانجلت على إثر ذلك بوادر حركة جديدة تنادي بالتغيير وتدعو إلى التجديد فنهضت بعبء المواجهة على أكثر من جبهة كان المحتل يتخندق فيها وخاصة حربه الشرسة على الإسلام واللغة العربية في أشـــكال عديدة : منها التعسف الإداري وسن القوانين الجائرة والاضطهاد البوليســـي وملاحقة القائمين على نشر اللغة العربية وتعليمها بالتغريم والسجن فكـــان رد المخلصين من أبناء الأمة التصدي لها بكل ما يملكون من إمكانيات فاستطاعوا رغم العوائق الكثيرة أن ينجحوا في وضع خطط معاكسة للرد على هـــذه الهجمة بفتح المساجد والمدارس والكتاتيب وتأسيس النوادي والصحافة المقـــروءة والدعـــوة إلى الله وحـــب الأوطان وغيرها من الوسائل التي كانت كالغيث النافع الذي يحيي الأرض بعد موتها ، فشاء الله سبحانه وتعالى أن يحيي بها القلوب الميتة ويستنهض بها العقول الغافلة النائمة .

وقد سجل المفكر الجزائري الأستاذ مالك بن نبي عليه رحمة الله تعالى في كتابه ـــ شاهد على القرن ـــ شهادته على هذه الفترة بقوله : " لقد بدأت معجزة

البعث تتدفق من كلمات ابن باديس فكانت تلك ساعة اليقظة ، وبدأ الشعب المخدر يتحرك ، ويالها من يقظة جميلة مباركة "

ويقول محمد الطاهر فضلاء: " قامت الحركات الإصلاحية بمجابهتها العديدة في كـــل معاركهـــا موقفا واحدا في الصلابة والاستبسال ، فهي حين تنبه الغافل وترشد الضال وتنصح في الدين والدنيا -إنما تقارع هذا الاستعمار الباغي وتهدم صـــرحه ومعاقله التي بناها في أوهام الناس ، وهي في هذا تتلمس النصح في لين أحـــيانا فـــتقوا مثلا على لسان رائدها الأول عبد الحميد بن بادريس في سنة 1937 م :

قلنا لفرنسا ، إننا لسنا فرنسا ، ولسنا أعداء فرنسا .

إن الأمـــة الجزائـــرية ليست فرنسا ، ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تستطيع أن تكون فرنسا ، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت ، بل هي أمة بعيدة عن فرنســـا كل البعد ، في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها ، لا تريد أن تندمج!!! [1]

وجاء عل لسان رائدها الثاني محمد البشري الإبراهيمي سنة 1947 م : " أيها المترددون على قصر " البوربون " .إنه لارطارد كاليأس ، وقد أيأسوكم فكأنهم طردوكم ، فارجعوا وتداعوا إلى الاتحاد على الحق الواضح بالمنطق المعقول ، فإن القوم قد اتحدوا على هضمكم بالمنطق المسلح .ارجعوا واجتمعوا وأجمعوا الأمة في مؤتمـــر ، واشـــرحوا لها الحقيقة ودعوا لها الكلمة الأخيرة في تحديد الموقف

---

[1] - محمد الطاهر فضلاء دعائم النهضة الوطنية الجزائرية التعليم الديني والإصلاح الدين وجمعية العلماء دار البعث قسنطينة ص105

وتقريـــر المستقبل .لا اندماج إلا لبعضكم في بعضكم ، ولا اتحاد إلا لأجزائكم الطبيعـــية بعضـــها مع بعض ". وكان لهذه الجهود الطيبة التي بارك الله فيها للشعب الجزائري على امتداد مراحل كفاحه في مختلف الميادين الفكرية والدينية واللغويـــة والاجتماعـــية والسياســـية أن أينعت ودنت قطوفها فتبلور الوعي الحضـــاري والحـــس الوطني في نفوس أبناء الأمة فأبصر الشعب حينئذ طريقه ومضـــى ينهض بأعبائه من الواجبات فلم يلبث أن فجر الثورة الكبرى الخالدة بتاريخ الفاتح من نوفمبر 1954 م وخاضها حربا ضروسا لا هوادة فيها على المعـــتدين المحتلين بإيمان صادق بوعد الله تعالى لعباده المجاهدين المؤمنين بالنصر الموعود فاستطاعت كتائب المجاهدين من جيش التحرير الوطني قهر الغزاة وهزم فلولهم وكسر قيد الظلم والإرهاب والإجرام المسلط على الشعب وأخذ الحرية من أيدي الغزاة وطرد هم إلى غير رجعة مندحرين صاغرين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين